

اسلوب العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان

علي رضا ميرزا محمد

مؤسسة الدراسات والبحوث الثقافية

إن تفسير الميزان موسوعة رصينة جامعة، تشتمل على أبحاث عميقة في القرآن والحديث والفلسفة والعرفان والاخلاق والتاريخ والمجتمع وغيرها، دونت بشكل ابتكاري واسلوب تحقيقي دراسي. وهذا التفسير القيم بديع ورائع في الشكل والمعنى، ورعاية الموازين القرآنية الصحيحة، وفصل الأبحاث التفسيرية والروائية والعلمية بعضها عن بعض، ونقد آراء بعض المفسرين ودراساتها وتحليلها، وماشابه ذلك، إلى حد يمكن القول فيه: إنه لم يؤلف خلال تاريخ تفسير القرآن كتاب بهذه الدقة والتنسيق والاشتمال. فهذا الكتاب يختلف عن التفاسير الأخرى اختلافاً كبيراً وواضحاً في طريقة تفسيره وصيغته العلمية؛ ذلك أن التفاسير القديمة والحديثة تفتقد إلى التنسيق والتنظيم الخاصين اللذين روعيا فيه، هذا وعلى كل حال يمكن بيان خصائص تفسير الميزان ودراساتها في النواحي الثلاثة الأساسية التالية:

الف: الناحية القرآنية. تقوم هذه الناحية التي تعتبر في الواقع الميزة الأساسية للميزان، ويميزه عن بقية التفاسير على أساس تفسير القرآن بالقرآن، أي تفسير كل آية بالاستشهاد بآيات أخر.

ب: الناحية الروائية. لقد تمت دراسة المسائل في اطار الأبحاث الروائية للميزان في أبعادها المختلفة وبنظرة تحليلية؛ وأدي الموضوع حقاً كاملاً بدون أي إيجاز مخلّ واطناب ممل. وكانت النتيجة حلّ الكثير من المشاكل والغموض وازالتها.

ج: الناحية العلمية المستقلة. كان العلامة الطباطبائي بعد أن يفسر آية أو عدداً من الآيات ذات الموضوع الواحد، يورد بناء على مقتضى الكلام وحسب الضرورة أبحاثاً علمية مستقلة في الميزان، ويبادر إلى شرح وبيان جوانب كل بحث في نهاية الدقة والايجاز ويخرج بنتيجة معقولة ومنطقية تحلّ الكثير من المشاكل العلمية والنفاقية.

لمدخل الى معرفة «الميزان»

والتاريخ والمجتمع وغيرها، دونت بشكل ابتكاري واسلوب تحقيقي دراسي. وهذا التفسير القيم بديع ورائع في الشكل والمعنى، ورعاية الموازين القرآنية الصحيحة، وفصل الأبحاث التفسيرية والروائية والعلمية بعضها عن بعض، ونقد آراء بعض المفسرين ودراساتها وتحليلها، وماشابه ذلك، إلى حد يمكن القول فيه: إنه لم يؤلف خلال تاريخ تفسير القرآن كتاب بهذه الدقة والتنسيق والاشتمال. وهو يتباين تماماً عن التفاسير الأخرى - القديمة منها والحديثة - تلك التفاسير التي كان يهتم

يعتبر تفسير الميزان الشريف أثريراع العالم الرباني القدير، والحكيم الصمداني، والجامع للعلوم الفلسفية والشرعية، والعارف الواصل والانسان الكامل، والمفسر الكبير العلامة الطباطبائي - رضوان الله تعالى عليه - أحد المصادر الأساسية في الثقافة والعلوم الإسلامية في القرن الراهن. كما أن هذا الكتاب العظيم في الحقيقة موسوعة رصينة جامعة، تشتمل على أبحاث عميقة في القرآن والحديث والفلسفة والعرفان والأخلاق

يمكن البحث عن أسباب تباينه عن التفاسير الأخرى في مبدعه فقط، وعبارة أوضح، إن سبب هذا التباين يكمن في النبوغ الفكري والقدرة العلمية والعملية والشخصية الفذ يتمتع بها ذلك الأستاذ. ذلك أنه لم يكن ذاباع طويل في الفلسفة والشريعة فقط بل كان أيضاً من أصحاب المعرف والشهود والكمال بين أصحاب الكرامات في وادي المعرف بعبارة أخرى: كان تبحر هذا العلامة في الفلسفة والتفسير والأصول والحديث والآداب والرياضيات والنجوم والنادرة وغيرها من جهة، وطيه المراتب العرفانية العالية الكمالات المعنوية وتخلقه بالأخلاق الإلهية من جهة أخرى. دليلاً على إحاطة هذا الآية الإلهية العظمى في العلم والعمل كما قال أحد الذين جنوا من رياض علمه وفضله:

«كان آية الله العلامة الطباطبائي يجمع بين العلم و علاوة على استيعابه للعلوم؛ ذلك العمل الذي ينبع من النفس ويتحقق هذا على أساس طهارة الباطن؛ كان جام العلوم والكمالات الفكرية والوجدانيات والأذواق القلبية الكمالات العملية والبدنية. أي إنه كان رجل حق تتحقق ذرات وجوده بالحق»^(٣).

ومن الطبيعي أن تكون إحدى ثمرات وجود عالم كبير مقالته أحد مردياته فيه مكرماً ومعظماً:

«إن كل آثار ذلك العالم الجليل علم وفكر؛ كلها حجة معرفة؛ كلها بحث وتحقيق؛ كلها عشق وعقل؛ كلها وحديث»^(٤).

وعلى كل حال فإن تبلور العلم والعمل، والفكر والإخ والعقل والإشراق في وجود هذا الرجل العظيم الحكيم، كوشخصية فذة نادرة، فارتضاها تماماً أهل الفضل والبه كميزان للعلم والكمال. ومن البديهي أن تتوقع من قطرات مثل هذا الحكيم الزاهد أثراً غير تفسير الميزان القيم في العلوم الإسلامية وقد حصر هذا العالم نشاطه سعياً منه هذا الهدف الإلهي السامي، في مجالي التفسير والفلسفة. تبحره في الفقه والأصول والحديث والعلوم الإسلامية الأداء منه لتكليف شرعي. يقول الأستاذ نفسه في هذا الشأن «حينما قدمت من تبريز إلى قم، قمت بدراسة ما يحتاج المجتمع الإسلامي، والوضع الذي في حوزة قم، و

مؤلفها غالباً إما باتجاه واحد أو اتجاهات محدودة. فيضيقون بالتالي الكثير من الحقائق. أو أنهم لا يراعون في دراستهم وأبحاثهم دقة النظر الكافية، والاهتمام العلمي الضروري. أو أنهم يؤلفون كتاباً هو أقرب إلى الترجمة منه إلى التفسير. أو قد يميل بعضهم - عمداً أو سهواً - من التفسير إلى التأويل ويحملون آراءهم العلمية على مضامين الآيات. ولا يرب في أن هذه الطريقة الأخيرة قد شاعت بعد اتساع رقعة الفتوحات الإسلامية اعتماداً على الأبحاث الكلامية والفلسفية والعرفانية والروائية وغيرها في مجال تفسير القرآن، وانتهت إلى اختلافات مذهبية شديدة و بالتالي أدت إلى الاختلاف في طرق التفسير. وهوما أشار إليه الشيخ الطوسي - قدس سره - في مقدمة تفسير التبيان:

«فوجدت من شرع في تفسير القرآن من علماء الأمة، بين مطيل في جميع معانيه، واستيعاب ما قبل فيه من فنونه - كالطبري وغيره - وبين مقصر اقتصر على ذكر غريبه، ومعاني ألفاظه. وسلك الباقي المتوسطون في ذلك مسلك ما قويت فيه منتهم^(*) و تركوا ما لا معرفة لهم به فإن الزجاج والقرآء ومن أشبهها من النحويين، أفرغوا وسعهم فيما يتعلق بالأعراب والتصريف. ومفضل بن سلمة وغيره استكثروا من علم اللغة واشتقاق الألفاظ. والمتكلمين - كأبي علي الجبائي وغيره - صرفوا همتهم إلى ما يتعلق بالمعاني الكلامية. ومنهم من أضاف إلى ذلك، الكلام في فنون علمه، فأدخل فيه ما لا يليق به، من بسط فروع الفقه، واختلاف الفقهاء - كالبلخي وغيره»^(١).

وذهب العلامة الطباطبائي إلى أبعد من ذلك، فبعد دراسة جميع أساليب التفسير ونقدها، استنتج قائلاً:

«وأنت بالتأمل في جميع هذه المسالك المنقولة في التفسير تجد أن الجميع مشتركة في نقص وبس النقص، وهو تحمّل ما أنتجه الأبحاث العلمية أو الفلسفية من خارج على مداليل الآيات، فتبدل به التفسير تطبيقاً وسُمي به التطبيق تفسيراً، وصارت بذلك حقائق من القرآن مجازات، وتزليل عدّة من الآيات تأويلات»^(٢).

إن وقوف الأستاذ العلامة الكامل على نقائص أسلوب المفسرين قبله، واهتمامه برعاية الدقائق الضرورية في تفسير كتاب الله بشكل صحيح، وتطلعه إلى هدف سام، هو الذي أبدع مثل هذا الأثر الطريف والتفسير الشريف. هذا التفسير الذي

الواقع الميزه الأساسية للميزان. و يميزه عن بقية التفاسير على أساس تفسير القرآن بالقرآن، اي تفسير كل آية بالاستشهاد بآيات أخر و بعميلة التدقيق والتمحيص يبادر لتبيان مدلول جانب من القرآن بتناوله جانب آخر منه. و هو أسلوب بديع مستمد مماورد بصراحة في القرآن الكريم:

«... ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء...»^(٧)

«... هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان...»^(٨)

«... و أنزلنا إليك نورا مبينا...»^(٩)

كما أن هذا الأسلوب يستلهم في تفسير الآيات الالهية من أخبار و أحاديث اهل بيت الرسالة والولاية. حيث نجد عندالرجوع إلى أبحاث الميزان الروائية نماذج كثيرة لها، علاوة على أن في نصوص الحديث شواهد تؤيد الأسلوب المذكور، فقد روي عن المعصومين(ع) حول ذلك:

الرسول الاكرم(ص): «... إن القرآن ليصدق بعضه

بعضاً...»^(١٠)

الامام على(ع): «كتاب الله تبصرون به، وتنتظرون به،

وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض...»^(١١)

ففي الناحية القرآنية للميزان لم يتطرق البحث الآ لتفسير القرآن بالقرآن، و تبعاً لما يراه العلامة، فقد تم تجنب أي نوع من الاستدلال الفلسفي، والنظريات العلمية و المكاشفات العرفانية في تفسير الآيات. أما بعض الابحاث الفرعية الاولية التي وردت بالضرورة في هذا القسم لا تخرج عن أمرين: إما أنها ملاحظات أدبية تعتبر من الضروريات الأولية لفهم الأسلوب العربي للقرآن، أو مقدمات بديهية عقلية و مبادئ علمية لا يختلف فيها اثنان.^(١٢) و كما يبدو، ليس هذا الأمر مما لا يتنافى مع أسلوب التفسير الذي نبحت فقط بل يعتبر من الضروريات الأولية في التفسير باعتبارها مقدمة لدرك مفاد القرآن.

و يعتمد البحث في المقدمات المذكورة هذه في السياق العام لدراسة الناحية القرآنية للميزان على أسلوب خاص، و ذلك أن تذكر آية أو عدة آيات ذات موضوع واحد ثم يتم الحديث عن ذلك الموضوع تحت عنوان «بيان الآيات أو الآيات» بشكل مجمل بحيث يستنبط من مجموعها في الواقع «المعجم الموضوعي للقرآن» ثم تذكر كل آية تبعاً لتسلسلها القرآني، و تتم دراسة المسائل اللغوية والبلاغية - الأدبية المتعلقة بألفاظ الآيات وفق

لبحث الدقيق إلى أن الحوزة بحاجة شديدة إلى تفسير آن، لتطلع على المعاني السامية في أكثر النصوص الاسلامية لة و أعظم أمانة الهية والتعريف بها. كما كانت الحاجة ماسة جهة أخرى إلى البحوث العقلية والفلسفية بسبب انتشار كوك الإلحادية لتستطيع الحوزة إرساء القواعد الفكرية مقائدية الاسلامية بالبراهين العقلية والدفاع عن آرائها. و لك رأيت من واجبي الشرعي أن أسعى لتوفير هاتين اجتين^(٥)

لقد كان تدريس التفسير والفلسفة بذلك الدافع الالهي نسبة للعلامة ذا أهمية إلى الحد الذي دعا لإحلالها محل درسي فقه والاصول. يقول في بيان سبب هذا العمل:

«يوجد في حوزة قم العلمية والحمد لله أشخاص يدرسون فقه والأصول، ولكن لا يوجد ما يكفي من الأساتذة للفلسفة لتفسير، و حوزة قم العلمية والمجتمع الاسلامي بحاجة شديدة إلى التفسير والفلسفة، و لذلك فإن ممارستي لهذين العلمين أنفع لاسلام»^(٦)

لقد بدأ العلامة الطباطبائي تدريسه لتفسير القرآن في الحوزة عدوه هذه النظرة الالهية والأفكار السامية، و تابع تدريسه سنين طوياً إلى أن تم التمهيد لتأليف تفسير الميزان بعد دراسات و نقصيات طويلة، هذا التفسير الذي استمد مادته من اندماج العلم بالعمل، والعشق بالعقل، والالتزام بالاخلاص. حتى أصبح من الواجب أن يدعى بحق «أم الكتاب» بين مصنفات و مؤلفات ذلك العلامة الحكيم.

مميزات تفسير الميزان

إن الميزات والخصائص التي يتمتع بها تفسير الميزان الشريف أوسع من أن تدرس دراسة وافية في مثل هذه المقالة. ولكن اعتماداً على قول «مالا يدرك كله لا يترك كله» لا بد من دراسة بعض الجوانب فيه. فهذا الكتاب يختلف عن التفاسير الأخرى اختلافاً كبيراً و واضحاً في طريقة تفسيره و صيغته العلمية. ذلك أن التفاسير القديمة والحديثة تفتقد إلى التنسيق والتنظيم الخاصين اللذين روعيا فيه. و على كل حال يمكن بيان خصائص تفسير الميزان و دراستها في النواحي الثلاثة الأساسية التالية:

الف: الناحية القرآنية. تقوم هذه الناحية التي تعتبر في

الضرورة، بحيث تدور غالباً حول المعاني، واشتقاق المفردات، و
اعراب الكلمات، والمجازات والكنايات والاستعارات وأنواع
التشبيه والتمثيل وغيرها. وليس لهذه المسائل أهمية كبرى
باعتبارها ضرورية كمقدمة للتفسير فقط بل ذات أهمية أيضاً
بالنظر للبلاغة وصور القرآن البيانية.

ويبدأ بعد هذه المقدمات البحث الأساسي وهو تفسير
القرآن بالقرآن وإزالة الغموض الذي في كل آية بالاعتدال على
آيات البيئات الأخرى. ويتابع المؤلف التفسير بأسلوب دقيق
بالاستناد إلى كتاب الله وأخبار المعصومين - عليهم السلام - في
نهج منطقي دون أن يحدث أي تدخل أو تصرف في مدلول الآيات
أو التفسير بناء على ما جاء في الحديث النبوي «من فسّر القرآن
برأيه وأصاب الحق فقد أخطأ»^(١٣).

«إن هذا التفسير فريدمن نوعه في عرضه للمسائل الدقيقة
والحساسة والحيلولة دون مغالطة المعاندين، ومن حيث أنه
شامل وجامع حتى ليتمكن القول بحق: لم يدون تفسير مثله
من صدر الإسلام»^(١٤).

و مما تجدر الإشارة إليه أن طريقة تفسير القرآن بالقرآن وإن
كانت متبعة إلى حد ما قبل الميزان وانتشرت بعده، إلا أن الميزان
يظل التفسير الممتاز الوحيد الذي لا مثيل له ولا منازع. وليس
للتفسير السابقة واللاحقة أن تبلغ شأوه وتطرق ساحة عظمته.
ولا يعود سبب هذا التفضيل وهذه الميزة إلى تفسير آية بالنظر إلى
مضامين عدد من الآيات المشابهة أو استنباط حكم من الأحكام
الفقهية والأصولية وغيرها بإعادة الآيات العامة إلى الخاصة أو
المطلقة إلى المقيدة. وإنما مزية الميزان في أن فيه التفسير الظاهري
والباطني من جهة والتأويل من جهة أخرى - ذلك التأويل الذي
هو من أصل الحقائق الخارجية للمفاهيم والمعاني. بحث روعي
التشابه بين الظواهر القرآنية، والتنسيق بين بواطن الآيات
والتنازل في التأويل مع انسجام تام بينها. ومن الطبيعي أن يكون
مثل هذا التفسير والتأويل من ابداع فكر خلاق لمفسر كالعلامة
الطباطبائي الذي استطاع بما وفق إليه من تهذيب في النفس،
وانشراح في الصدر ورسوخ في العلم أن يتدبر في القرآن بقلب
وهاج، وأن يكشف عن مفاتيح الآيات ليفتح بها أبواب خزائن
التأويل، ويصل إلى المعاني العميقة في القرآن، وينير الدرب أمام
المتطلعين للوصول إلى العلوم القرآنية الأصيلة. وبناء على هذا
فلا بد من أن يعتبر الميزان يمثل هذه الخصائص البارزة تفسيراً
ممتازاً لا نظير له في تاريخ تفسير القرآن. أو كما قال العلامة
المطهري في ذلك:

«لابد من الإشارة إلى أنه وردت أحيانا في خلال التفسير
أبحاث قرآنية بشكل جامع أو على انفراد تعتبر بحد ذاتها أهمية
من الناحية الموضوعية. كما ذكرت أحيانا مختلف الآراء
التفسيرية في المواضع التي لم يتفق المفسرون في وجهات النظر
حول تفسير آية من الآيات وتم نقدها وشرحها ودراستها بدقة.
و كان أسلوب العلامة في هذه المرحلة أن يذكر في البداية آراء
أشهر المفسرين كالزنجشيري والفخر الرازي والآلوسي و
صاحب المنار ثم ينقدها ويشرحها بأسلوب استدلال يركز على
مدلول الآيات. وينهي البحث بإبداء رأيه الصائب الذي يكشف
عن الحقيقة ويزيل الغموض.

ب . الناحية الروائية. إن الأسلوب الصحيح الذي نهجه
العلامة الطباطبائي في التفسير الروائي يختص به وحده لما فيه
من دقة وشمول علمي، وهو يختلف عن أسلوب المفسرين
الأخرين الذين غالباً ما يقتصرون في التفاسير المأثورة و
غير المأثورة بنقل روايات عن الرسول الاكرم والائمة
المعصومين - صلوات الله عليهم أجمعين - فيختارون المصادر
الروائية وينقلون الروايات منها تبعاً لاتجاهاتهم الفكرية -
المذهبية و تعصبهم لفرقهم. و بالتالي يوردون في تفاسيرهم
الكثير من الأحاديث و الروايات الضعيفة و غير الموثوقة
ولا المسندة بدون أي بحث تحليلي. أما الأحاديث والروايات
المتعلقة بالآيات في تفسير الميزان الشريف فقد نقلت من الجوامع
الحديثية والكتب المعتمدة لدى علماء الفريقين، و تم في بعض
الحالات نقد الروايات التي لا تتفق و نصوص القرآن، ودراستها
دراسة دقيقة و مستدلة و جامعة. و بذلك تتميز الأحاديث
الصحيحة والحسنة من الضعيفة و يرد الكثير من الاسرائيليات

«لم يدون تفسير الميزان كله بالفكر، واعتقد بأن أكثر

نسيحيات والمجوسيات التي لا يمكن أن يطلق عليها سوى سم أكاذيب أخذت طريقها إلى الأحاديث الصحيحة و تلقى ناباً و ذلك بالاعتقاد على الأدلة والبراهين. و علاوة على ذلك قد عينت مواضع الجري والتطبيق والتأويل بدقة في خلال لأبحاث الروائية، كما شرحت بعض الروايات ووضع لها بعض لتعليقات الضرورية والمفيدة، بحيث يساعد كل ذلك على بيان لدول الآيات مساعدة كبيرة.

والجدير بالذكر أن العلامة يملك قدرة كبيرة على تأويل لأحاديث و اعادتها إلى الآيات في القرآن بما يحيط به من أطفاف لهية، بالإضافة إلى وقوفه على تأويل الآيات والتنسيق بين ظواهر القرآن و بواطنه. وهو ما أشار إليه آية الله الكيلاني من خلال شرحه لأسلوب التفسير في الميزان قائلاً:

«لقد منحه الله خصيصة عظيمة في تأويل الأحاديث. هذه الخصيصة التي هي إحدى معجزات النبي يوسف الصديق. و يعني تأويل الحديث إعادة الرواية والحديث إلى أصلها. و كان تأويل الحديث في وجود العلامة الطباطبائي. أي كان يعيد الروايات التي وردت عن آل بيت رسول الله (ص) إلى القرآن، وهذا منتهى الكمال العجيب»^(١٧)

نعم لقد كان في روايات أهل بيت الرسالة حقائق و رموز خفية لا يصل إليها سوى الفكر الصافي والعقل النير، و كان لا بد من علامة كالتباطبائي يستطيع بما يملك من سمو فكري حنيف و عقل كامل نادر أن يكشف الستار عن رموز تلك الروايات و أسرارها، و يبين بالتالي الحقائق القرآنية.

كما شرح علاوة على ذلك المواضيع والمسائل الولاية عن طريق البحث في الأخبار والروايات التي يؤيدها علماء السنة و وردت في أحاديثهم. و بين بأسلوب استدلال الولاية الكلية والعامّة لمولى الموحدين الامام علي بن أبي طالب و سائر المعصومين - عليهم السلام - كما جرى بحث علمي دقيق حول سبب نزول الآيات و وردت نظريات مدروسة، فصلت بين الجري والتطبيق و بين أسباب النزول مع تنقيح و تصحيح الروايات المتعلقة بهذه الأسباب. و هو أسلوب لم يسبق إليه خلال تاريخ تفسير القرآن؛ ولانبالغ إذا ادعينا انه يمكن أن يشاهد في الميزان اكثر الأبحاث أصولية في شأن نزول آيات كتاب الله وأدقها تنقيحاً و تحقيقاً.

لقد تمت الاستفادة في الناحية الروائية للميزان من مصادر عديدة أهمها بناء على كثرة الرجوع إليها:

الف. الدر المنثور في التفسير بالمأثور و صحيح البخاري و صحيح مسلم و شعب الايمان والسنن للبيهقي عند السنة.
ب. الكافي و تفسير علي بن ابراهيم القمي و تفسير العياشي و تفسير البرهان و تهذيب الأحكام و مجمع البيان و معاني الأخبار و عيون أخبار الرضا عند الشيعة.

و بصورة عامة فقد تمت دراسة المسائل في اطار الأبحاث الروائية للميزان كالناحية القرآنية أيضاً في أبعادها المختلفة و بنظرة تحليلية. و أدى الموضوع حقه كاملاً بدون أي إيجاز مغل و اطناب ممل. و كانت النتيجة حل الكثير من المشاكل والغموض وازالتها؛ و بالتالي تعاضم قدر و منزلة هذا التفسير الشريف بين كبار اهل العلم والفضل.

ج. الناحية العلمية المستقلة. كان العلامة الطباطبائي بعد أن يفسر آية أو عدداً من الآيات ذات الموضوع الواحد، يورد بناء على مقتضى الكلام و حسب الضرورة إبحاثاً علمية مستقلة في الميزان، و يبادر إلى شرح و بيان جوانب كل بحث في نهاية الدقة و الإيجاز و يخرج بنتيجة معقولة و منطقية تحل الكثير من المشاكل العلمية و الثقافية. و هو يورد هذه الأبحاث بشكل منفرد و تحت عناوين خاصة، علمية و فلسفية و عقلية و تاريخية و اجتماعية و اخلاقية و غيرها لكيلا تتداخل المقولات التفسيرية بالمسائل العلمية و لا تفرض النظريات العلمية على دلالات الآيات، و لا يميل التفسير إلى التطبيق بصورة عفوية، و لا يفسر بالرأي، و بصورة عامة لا تتعرض الحقائق القرآنية للتحريف. و هذا الأسلوب المستحسن الذي اتبع في الناحيتين القرآنية و الروائية بدقة أيضاً، يتم عن تقوى هذا المفسر الالهي الكبير و كماله النفسي و صفاته الروحي. و بناء على هذا لا بد من أن نأخذ بنظر الاعتبار أنه لم يكن هدف العلامة من ايراد مثل هذه الأبحاث تفسير الآيات و شرحها على أساس القواعد العلمية. أو بعبارة أخرى لم يكن يريد أن يفرض نتائج البحوث العلمية - باعتبارها حقيقة مسلماً بها - على مضمون الآيات و إنما كان علاوة على تفسير الآيات البيّنات بالأسلوب القرآني يبين مختلف المسائل العلمية و العقلية و الفلسفية و غيرها باعتبارها تأييداً للوحي و الحقائق القرآنية أو لأن هذه العلوم ذات قدر و منزلة و اعتبار خاص. و

دراستها وشرحها ولا يسمح بحال من الأحوال بالاستفادة من المسائل النقلية (العلوم الشرعية). كما يبادر في أبحاث الميزان الاجتماعية، التي تعتبر فريدة من نوعها كماً و كيفاً، إلى إيراد نظرات القرآن الكريم حول أصول علم الاجتماع و يعتمد إلى دراسة وشرح الآداب الاجتماعية و العلاقات الانسانية و مشاكل المجتمع من مختلف الجوانب.

والخلاصة أن الاستاذ العلامة الطباطبائي يبادر في جميع نواح الميزان العلمية: القرآنية منها والفلسفية والكلامية والاخلاقية والعرفانية والتاريخية والسياسية والاجتماعية وغيرها إلى دراسة كليات المسائل و جزئياتها بتفكير عميق و نظرة دقيقة، ولا يرفع يده عنها ريثما يصل إلى النتيجة المطلوبة والمنطقية التي تتفق مع الموازين العلمية الصحيحة، ولا يتخطى أية مسألة بسهولة أبداً. و على كل حال فقد دون الميزان يمثل هذا الاسلوب الذي ينم عن دقة نظر علمية لدى المؤلف الكبير وعن تعهده الالهي الخاص وليس له من هدف سوى شرح العلوم و المعارف الالهية و العالم في رحاب الوجود و هداية الانسان بنور وحى القرآن الكريم و تعاليمه الضامنة لسعادة البشر.

المصادر والهوامش:

- * الثقة: القوة، والكلمة من الاضداد.
- ١- السنان في تفسير القرآن - السيخ الطوسي، ج ١، ص ١.
 - ٢- الميزان في تفسير القرآن - لعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، ج ١، ص ٨.
 - ٣- مهر تانان (فارسي) - سيد محمد حسين حسيني طهراني، ص ١٢.
 - ٤- يادنامه مفسر نير (فارسي)، مقالة لاسناد حسن زاده الأملي، ص ١١٣.
 - ٥- نفس المصدر، مقالة لاسناد محمد تقى مصباح، ص ٣٩ - ٤٠ - و جاء نفس المضمون ولكن مع مزند من السرح والتفصيل في «نخستين يادنامه علامه طباطبائي» (فارسي)، ص ١٩٤ - ١٩٧.
 - ٦- نفس المصدر، مقالة الاستاذ ابراهيم الاميني، ص ١٢٤ - ١٢٧.
 - ٧- سورة النحل (١٦)، الآية ٨٩.
 - ٨- سورة البقرة (٢)، الآية ١٨٥.
 - ٩- سورة النساء (٤)، الآية ١٧٤.
 - ١٠- كثر العال في سنن الاقوال والافعال - المتقي هندی، ج ١، ص ٤١٩، الحديث رقم ٢٨٤١.
 - ١١- شرح نهج البلاغة - ابن ابى الحديد، ج ٨، ص ٢٨٧. و نهج البلاغة - تحقيق الدكتور صبحي الصالح، ص ١٩٢.
 - ١٢- برجى الرجوع الى: الميزان في تفسير القرآن، ج ١، ص ١٢.
 - ١٣- تبيين في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي، ج ١، ص ٤. وورد هذا الحديث بروايات مختلفة أيضاً.
 - «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» (الرسول لاكم (ص): كثر العال -

هذا نفس أسلوب الأستاذ الفيلسفي الذي جمع فيه بين المعارف في القرآن الكريم و بين البرهان و العرفان. والذي يمكن أن نطلق عليه اسم «الحكمة السامية» و يعتبر بحد ذاته أحد الخصائص المثيرة في الميزان.

و علاوة على ذلك فإن لناحية الميزان العلمية خصائص بارزة أخرى أيضاً، أهمها: الفصل بين حدود المسائل العلمية و وظائفها. فحدود كل بحث في هذا التفسير معينة و مميزة تماماً تبعاً لمدى موضوعيته العلمية كما دار الحديث في كل نوع من العلوم عن الأحكام و المواضيع الخاصة، بهذا العلم فقط بشكل لا يمكن أن يشاهد فيه أثر للتداخل بين المسائل و المزج بين الأبحاث، فليس في مجال الأبحاث الكلامية مثلاً أثر لعلم الأخلاق، و ليس للتاريخ دور في البحوث الاجتماعية، ولا في الحديث عن العرفان، مكان للفلسفة، فقد روعيت حدود كل بحث بدقة تبعاً لقول القائل «لكلّ مقام مقال»^(١٨) دون تداخل بين الأبحاث و الموضوعات المختلفة، كما استغني في بعض المواضع عن إيراد بحوث خارجة عن حيز التفسير و اكتفي بالإشارة إلى موضوع مثل هذه الأبحاث فقط. كما حدث أحياناً أن أحيل البحث في المسائل الفقهية و الأصولية إلى المصادر الخاصة بهذين العلمين.^(١٩)

و من الخصائص الأخرى لهذا التفسير، دراسة الآراء و الأفكار في المدارس المختلفة و مطابقتها للقانون الاسلامي المقدس. وقد روعيت هذه الخصيصة في جميع نواح الميزان العلمية، ولا سيما في الناحيتين الفلسفية والاجتماعية حيث تبدو واضحة و لها أهمية بالغة. أما أسلوب العلامة في هذا المجال فيعتمد على إيراد مختلف النظريات التي تتعلق بموضوع خاص ثم العمل على شرحها و نقدها بنظرة صائبة و تحقيقية و بيان مواضع النفي و الاثبات أو الرد و التصويب فيها، ثم يجيب اجابته دقيقة و منطقية عن مشاكل المدارس الاحادية و المادية التي أخذت طريقها إلى المجتمعات الاسلامية، و يزل الغموض بأسلوب استدلالى عقلي و يكشف عن الحقائق.

فالعلامة جعل البرهان و العرفان في الأبحاث الفلسفية عامة في خدمة القرآن، و تصدى في هذا السبيل للدفاع عن حريم الاسلام المقدس و القرآن، بشرح الكثير من حقائق الوجود، فكان يورد الاصول الفلسفية بأسلوب رياضي و يعتمد إلى

اسلوب العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان

- المتقي الهندي، ج ٢، ص ١٦، رقم ٢١٥٧ - وبكلمة «تكلّم» بدلا من «قال»: بحار الانوار - العلامة المجلسي، ج ٩٢، ص ١١١ نقلا عن «ميزان الحكمة - محمد ري سهرى، ج ٨، ص ٩٥».
- «من فسّر القرآن برأيه فأصاب لم يؤجر فإن أخطأ كان اثمه عليه» [الامام الصادق(ع)]: الحكم الزاهرة - علي رضا الصابري البيزدي، ص ١٢٧ - وباللفظ «وإن» بدلا من «فإن»: ميزان الحكمة، ج ٨، ص ٩٥.
- وفي حديث: «ومن فسّر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب» [الرسول الاكرم(ص)]: مستدرك سفينة البحار - الشيخ علي نمازي الساهرودي، ج ٨، ص ١٩٦.
- قال الله جل جلاله: «ما آمن بي من فسّر برأيه كلامي...» [الرسول الاكرم(ص)]: نفس المصدر: وكلمة الله - السيد حسن السيرازي، ص ٨٧، و ميزان الحكمة، ج ٨، ص ٩٥.
- «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» [الرسول الاكرم(ص)]: كنز العمال، ج ٢، ص ١٦، رقم ٢٩٥٨ - و بإضافة كلمة «برأيه» بعد «القرآن»: الحكم الزاهرة، ص ١٢٧.
- «من قال في القرآن بغير ما علم جاء يوم القيامة ملجأ بلجام من نار» [الرسول الاكرم(ص)]: ميزان الحكمة، ج ٨، ص ٩٥، والحكم الزاهرة، ص ١٢٧.
- إن هذه الروايات تؤكد بصورة عامة على نيل التفسير بالرأي وهي ترقب عواقب وخيمة و عقاباً أليماً لأنال هؤلاء المفسرين بحيث تعتبر صاحب الرأي الصحيح غير ماجور في ذلك، والأهم من هذا أن من فسّر برأيه وأصاب فقد أخطأ، وكلّ هذا التأكيد لكيلا يحلّ التأويل محلّ التفسير و الألفراض نتائج الأبحاث العلمية على مضمون الآيات، ولا يستبدل الجري والتطبيق بالتفسير ولكيلا تتعرض بالحقائق والمعاني القرآنية، السامية بالتالي إلى التحريف.
- ١٤ - نخستين يادنامه علامه طباطبائي (فارسي)، ص ٢٠٠.
- ١٥ - يادنامه مفسر كبير (فارسي)، ص ٣٢.
- ١٦ - مهر تابان، (فارسي)، ص ٤٣.
- ١٧ - روزنامه كيهان (جريدة فارسية)، بتاريخ ١٣٦٠/٩/٥.
- ١٨ - غررالحكم و دررالکلم - عبدالواحد بن محمد التميمي الأمدي، شرح محقق الخوانساري ج ٥، ص ١٦.
- ١٩ - يرجى الرجوع إلى: الميزان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٢٢١.